رابين، باراك... أما الثيران من أمثال شارون (جنرال بلطجى) ، والـبغال من أمثال ناتانياهو (وهو ليس عسكرياً كما نعرف) فإنهم يظنون أن الفتونة والمهيصة تغنى عن إعمال الحكمة والفكر ، إنهم لغـرورهم وحماقـتهم كما كان الحال عند فتوات مصر – يظنون أنهم وحدهم فى هذا العالم فتفوتهم حقائقه .

كـان اغتيال رابين فى إسرائيل هو نظير اغتيال السادات فى مصر، وكان فى كلتا الحالتين عملاً فاشلاً ، لأن الفرد هالك على أية حال، أما الأفكار فهى قادرة على البقاء فى عقول الآخرين.

مستقبل القوات المسلحة :

تتميز الحقبة التى نعيشها الآن بما يبدو أنه تطور هائل فى دور القوات المسلحة أو فارق كبير بين دورها طوال ثلاثة أرباع القرن العشرين، والربع الأخير من هذا القرن أو ربما نقول "ذلك القرن"، باعتبار أنه قد انقضى .

شهدنا ــ أو شهد العجائز منا، مثلى أنا وأبناء جيلى ــ حربين عظيمتيـن فى القرن العشرين. كانت الأولى صراعاً بين أباطرة أوربـا، يـأتى من أطماعهم فى بقية أنحاء العالم، كانت أوربا قد قطعـت شـوطاً فى التقدم يجعلها لا ترى فى آسيا وإفريقيا سوى مـوارد ماديـة وبشرية يحق لها أن تستمد منها ما تشاء من أجل إنتاجها ورفاهيتها ، ومن هنا جاءت حرب البوير مثلاً قبل ذلك، ثم وصـل الصـراع على هذه الغنيمة الكبرى إلى أقصاه فى الحرب العالمـية الأولى. ويرى الكثيرون أن الحرب الثانية لم تكن سوى نتـيجة للأولـى ولما أدت إليه من إذلال لواحدة من أعظم وأقوى الأمم فى العالم وهى ألمانيا ، التى أصر شعبها على الانتقام . إن كـان هـذا صحيحاً فبدرجة أو أخرى، لأنه لا يفوتنا أن نلحظ أن ألمانـيا كانـت قـد تحولت من نظام إمبراطورى ــ بعد سقوط

الإمبراطور غليوم بعد الحرب وبسببها . كما سقط قيصر روسيا ولنفس الأسباب ــ إلى نظام فاشى كانت بذوره قد أنبتت نظاماً مماثلاً فى إيطاليا وإسبانيا ، بل إن إسبانيا كانت قد دارت فيها الحرب بين هذه الفلسفات الجديدة فى الحياة والحكم ــ الديموقراطية والشيوعية والفاشية ــ وهذه الحرب كانت هى "البروفة" للحرب العالمية الثانية وبقية القصة معروف . هذه الحرب العالمية إذن لم تكن مجرد استمرار للصراع على الغنائم وعلى القارات والشعوب المتاحة للاستعمار، بل كانت أيضاً صراعاً أو صداماً بين الأيديولوجيات والعقائد السياسية الاجتماعية. الواقع أن ألمانيا كانت قد كفت عن التفكير في استعمار بلدان إفريقيا، بل إن الحرب العالمية الثانية كانت مسلكاً تاريخياً نحو إنهاء الاستعمار القديم وسقوط مؤسساته البريطانية والفرنسية والهولندية والبلجيكية والبرتغالية والإسبانية كل هذا أصبح "موضة قديمة" بفعل التطور المستمر فى مفاهيم الحياة وأساليبها : وبفعل ظهور أمريكا كقوة عظمى وسيادة عقليتها "الأعمالية" أو "التجارية" أو "البيزنسية"، كائناً ما كان التعبير المفضل لدى القارئ. صاحب هذا أيضاً تطور هائل فى علوم وتكنولوجيا الفضاء والمعلومات جعل الوجود العسكرى أمراً لا ضرورة له للسيطرة على دنيا المستعمرات أو على العالم الثالث أو المتخلف أو"الاخذ فى التطور" كما يسمونه هم ، بصرف النظر عن مدى دقة هذا التعبير. كان الإنجليز ينشرون فى أنحاء العالم الملايين من أبنائهم على هيئة جيوش برية و أسطول يجوب أنحاء العالم من أجل السيطرة عليه وعلى موارده، لم تعد هناك ضرورة لذلك ولم يعد هناك فائض بشرى لدى الدول المسيطرة يمكنها من ذلك، كما أن فكرة "التدخل السريع" أصبحت منطقية جداً مع تطور وسائل النقل الجوى ــ وربما الفضائى فى المستقبل القريب ــ والحالات واضحة ومتمثلة أمامنا : العراق ويوغوسلافيا وتيمور .

كمـــا أنـــه فـــى هذه الحالات الثلاث لم تكن القوى العسكرية هى جـــيوش دولـــة استعمارية أو أخرى بل قوات تتحالف تحت راية الأمـــم المـــتحدة وتعمل تحت غطاء قانونى ــ إلى جانب غطائها التكنوفضـــائى يستمد من أحقية المنظمة الدولية ومن عضوية دول العـــالم كلهـــا فيها، ومن لا يرغب فى هذه العضوية لن يكون هذا طريقة إلى الحرية وإلى النجاة من السيطرة العالمية ــ كما هو فى هذه الحالة الفريدة، سويسرا ــ بل إنه سيضعه فى موضع المجرم الذى يحق للرابطة أن تضبطه بدون حتى إذن من النيابة .

هناك إذن عاملان أساسيان فى تطور الجيوش من حيث دورها فى حياة الأمم . الأول تكنولوجى، ويأتى من حقيقة أنه لا أمل فى أن تـــنفرد أية دولة بعمل عسكرى، كما فى حالة العراق، أو حتى شبه عسكرى، كما فى حالة يوغوسلافيا، وإلا فالتأديب بالخرزانة أو حتى النبوت سيكون كفيلاً بإعادتها إلى الطاعة كالمرأة الناشز، والنبوت ليس متاحاً لأحد سوى هذه القوة العالمية الهائلة التى تأتى مـــن الولايات المتحدة الأمريكية ومعها الولايات المتحدة الأوربية (وقـــد كـــان تأديب يوغوسلافيا راجعاً إلى عوامل متعددة ، ولكن علـــى رأســـها أنها عقبة فى سبيل هذا الاتحاد الجديد الذى أصبح محتوماً بعد دمار الفاشية والشيوعية واستحالة عودة ألمانيا وروسيا إلى الحياة بدون معاونة أمريكا)، أما العامل الثانى فى تطور دور القوات المسلحة فهو هذا نفسه، النظام العالمى الجديد الذى يجعلها لا تســـتطيع أن تعمـــل إلا تحت هذه المظلة، مظلة الناتو أو ما قد يحـــل محلـــه فى المستقبل . والنظام الغربى الحديث ــ الذى هو تولـــيفة من الديموقراطية التعددية والرأسمالية الخاضعة لضوابط قوانيـــن العمـــل وغـــيرها من التشريعات التى تعمل على تهذيبها وحمايـــة الـــناس من طغيانها ــ هذا النظام يتضمن أيضاً خضوع القوات المسلحة لقيادة مدنية هى سلطة الدولة، أما القيادة العسكرية الـــتى تشـــارك فى رسم سياسة الدولة أو ممارسة الحكم فهو أمر

بغـيض عـند العقلـية الغربية الجديدة لأنه ينتمى للفاشية الأولى (أسـتعير التعبير من الكتاب الكريم ، الجاهلية الأولى)، حتى ولو كان هذا طبقاً لدستور ينص على دور للجيش فى إدارة الحكم، كما فى تركيا ، وهو واحد من الأسباب الكثيرة التى تجعل الأوربيين لا يرون تلك الدولة جديرة بعضوية الاتحاد الأوربى، مهما اشتركت فـى مناورات مع إسرائيل ! والواقع أننى لست أرى كيف سيمكن قـبولها فيه . ولكن القوات المسلحة التركية تظل واحدة من أذرع حلـف شمال الأطلنطى وواحداً من الأمثلة التى توضح ما نتحدث فـيه الآن ، فتركيا ليست حرة فى استخدام جيشها فى أية أهداف تـريدها تلك الدولة ــ كملاحقة الأكراد فى شمال العراق أو تهديد سـوريا بالحشود على حدودها ــ لا تستطيع ذلك إلا بالتنسيق مع قـيادة "النظام العالمى" كما يسمى، سواء كان ذلك خافياً أو معلناً. وعندما يتوسط رئيس مصر ــ مشكوراً طبعاً ــ لنزع فتيل الأزمة بيـن تركيا وسوريا وينجح فى ذلك ، فإن هذا لا يعنى أن النظام العـالمى متمـثلاً فـى الاتحادين الأمريكى والأوربى كان سيقف موقف المتفرج لو أن تركيا هاجمت سوريا ، وهى لم تكن ستجرؤ على ذلك بدون ضوء أخضر" .

قـبل أن ننـتهى من هذه النقطة علينا أن نذكر دور مصر فى الحملـة التأديبـية ضد العراق ، أو فى حرب تحرير الكويت كما تسمى. هذا الدور، ومن قبله حرب أكتوبر ١٩٧٣، والتى حظيت فـيها مصر بتقدير النظام العالمى الذى كان يوشك على الظهور، برغم الإسراع إلى نجدة إسرائيل لأنه ليس مسموحاً على الإطلاق بإلحاق الضرر بها كمجتمع وكدولة، هذان الحدثان يمثلان تطوراً هـائلاً فى العسكرية المصرية وبداية جديدة لقواتها المسلحة تتفق مع عضوية مصر فى المؤسسة العالمية ونهاية لدورها كدولة ناشز أو مارقـة Pariah state كمـا تسمى ، وهو الدور المؤسف الذى لعبـته فـى الماضـى القريـب ودفعت له ثمناً باهظاً من كيانها

وتاريخهـــا وحضـــارتها وقيمتها وكرامتها . وهكذا فإن العسكرية المصرية تتخذ طريقها نحو بناء جيش متطور وعلى درجة عالية مـــن الكفاءة ، فقط هذه الكفاءة يستمدها هذا الجيش ، كما فى كل جـــيوش الـــدول المنتمـــية للنظام الجديد ـــ من عضويته فى هذا النظام. وهو ـــ بكل تأكيد ـــ الطريق الوحيد نحو هذه الغاية .

إلا أنـــنى ـــ كمجرد مواطن ـــ أتمنى أن تتبنى قواتنا المسلحة فـــى المســـتقبل على الاحتياجات الفعلية للدولة المصرية والشعب المصـــرى ، بعبارة أخرى على قضية الإنسان المصرى ـــ أنا لا أرى أن قضـــيتى أو قضـــية المواطـــن فى بلدى هى إنشاء جيش مهمـــته حمايـــة مكاسب الشعب ، فهذه الحماية هى مهمة القانون وهـــى المهمـــة التى من أجلها تقوم السلطة وإلا فلا داعى لها ولا حاجة بالشعب إلى احتمال تكلفتها . هذا إن وجدت هذه المصائب، أقصـــد المكاســـب . كمـــا أن هذا المواطن ليست مهمته محاربة الاســـتعمار لمجـــرد أن زعيماً أفاقاً أو آخر يريد أن يخدعه بهذا الشـــعار، قضيتنا هى أن نحصل على الحد الأدنى من الاحتياجات الأساسية للإنسان فى هذا العصر قبل أن نفكر فى الصراع مع كل كيان آخر، لأن هذا الصراع فى مصلحة دكتاتور جاهل أو آخر...

إن هـــزيمة ١٩٦٧ لـــم تكن حتى هزيمة ، إنها ناشئة عن عدم إدراك كـــل مـــن القيادة السياسية والقيادة العسكرية لماهية القوات المســـلحة ولا لرسالتها ، وهم على كل حال خريجو جيش ما قبل ١٩٥٢ الـــذى وصفوه هم بأنه جيش المحمل ، أما جيشهم هم فإن انعـــدام ثقافـــتهم وتهافتهم على الغنيمة يحول دون إدراكهم للمهمة الحقيقية للقائد العسكرى ولمكوناته الشخصية والمهنية ، القائد الذى يضـــطلع بمهمة مثل كمشيش لا يصلح لأن يحارب إلا فى جبهة مـــثل هـــذه ، كل ما سمعناه عن وحشية النازى مثلاً كان يرتكب بواسطة الجستابو، وليس الجنرال العسكرى الذى يعد نفسه أنموذجاً للفروسية والشهامة والثقافة الرفيعة . وكان الإعدام عقوبة الجندى

الألمـــانى إذا اعـــتدى علـــى امـــرأة فى المناطق المحتلة ، وكان الجنرالات يحتقرون الجستابو ويترفعون عن مخالطتهم .

ســـوف تظـــل حرب أكتوبر درساً عظيماً لأبنائنا ولقادتنا فى مستقبل هذه الأمة، وسيكون قادتها هم المثل العليا لأجيالهم المقبلة.

يجـــدر بـــنا هـــنا أن نضيف أن الجيوش لا تخوض الحرب، المجتمع بأسره هو الذى يحارب، والجيش هو الأداة التى يستخدمها فـــى ذلـــك، مـــن حق القائد العسكرى أن يشتغل بالسياسة، ولكن اشـــتغاله بها وتحت يده قوات الميس الأخضر وفصائل البلطجية الرسميين، هذا لا يعد سياسة والجيش الذى يسمح به ليس جيشاً .

الحرب الحديثة

أنـــا لن أمل من تكرار بث هذه الرسالة إليك لعلك تستطيع أن تفهمها ، أنت ستخرج من كوسوفو ، وأهلها سيعودون إلى بيوتهم.
تونى بلير ، رئيس وزراء بريطانيا

فـــى حديـــث مـــذاع، مخاطباً ميلوسوفيتش، الذى اعتمد على صـــعوبة الغزو البرى لكوسوفو لطبيعة أرضها، مما دفع الحلفاء إلى تدمير مرافق صربيا.

هـــناك نوعـــان من الحرب : الحرب النظامية، وفى هذه نجد القـــوى المتصارعة تستخدم الأسلحة الحديثة التى هى متاحة لها، وقد جاء القرن العشرون بالطائرات ثم بالصواريخ، وأثناء ماسمى بالحـــرب الباردة كان الاتحاد السوفيتى والدول المتناصرة له تضع صـــواريخها علـــى منصات الإطلاق، محملة بالرءوس النووية، وعلى الجانب الآخر أوربا الغربية، ثم من وراء المحيط، الولايات المـــتحدة تفعـــل نفس الشىء . لم يحدث "تسخين" للحرب الباردة لحســـن حـــظ البشرية، وشاهدت جون كيندى فى مطلع الستينيات يلقى خطاباً يقال أنه كان واحداً من أسباب اغتياله، يقول حرفياً "إن تبادلاً للقذائف النووية، يستمر أقل من أربعين دقيقة، سيكون كافياً لإبـــادة أربعيـــن مليوناً من كل جانب"، بمعنى أنه يجب البدء فى محادثـــات نـــزع السلاح النووى، وفعلاً كان قد بدأ محادثاته بهذا الخصوص مع نيكيتا خروشوف بمشاركة هارولد ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا . التكنولوجيا جعلت الاحتلال بالجيوش إجراء من

النوع "البلدى" ــ لم يعد له لزوم. ولذلك فإن الولايات المتحدة كانت ــ وما تزال ــ مستعدة لتلقى ضربة نووية مع وجود حكومتها وكل أجهزتها فى مخابئ تحت الأرض تمكنها من البقاء، ويرجع هذا لأيام أيزنهاوز. وقد حدث فى أوائل هذا القرن الجديد، بالتحديد سنة ٢٠٠١، أن أدلى الرئيس اليمنى على عبدالله صالح بتصريح قال فيه : "اعطونى حدوداً مشتركة مع إسرائيل وأنا أريكم ما سأفعل" ــ كان واضحاً من هذا التصريح أنه يتحدث عن فنون القتال السابقة للقرن العشرين متجاهلاً القوة الجوية والصاروخية البعيدة المدى، وأنه أيضاً يريد التعريض بالدول التى لها حدود مشتركة مع إسرائيل، وفى حالة الأردن تصل إلى خمسمائة كيلو متر، ولكنه بالطبع كان يقصد مصر كالمعتاد، وهى أيضا حدود طويلة تمتد من رفح إلى طابا. وقد رد عليه الرئيس مبارك ــ أطال الله عمره، قائلاً "تعال يا خويا ورينا شطارتك"، سكت الرئيس اليمنى وعلقت الصحافة المصرية بقولها إن الرئيس المصرى كان فقط يداعب "شقيقه"(تعبير عجيب درج عليه الإعلام العربى).

النوع الثانى من الحرب هو ما سمى قديماً باسم "حرب العصابات" ــ وهو تعبير يفتقر إلى الدقة . فى هذا النوع يتعرض الجيش النظامى للهجمات من جانب جماعات صغيرة ــ بل وأحياناً فرد واحد ، من نوع رامبو الذى شن حرب عصابات ضد حكومته فى عقر دارها بعد أن اكتسب مهارات قتالية أسطورية فى حرب فيتنام، ومن الأمثلة الرائعة أيضاً الهجمات الانتحارية التى يشنها الشباب الفلسطينى فى نطاق الانتفاضة، وإن كنت ــ على المستوى الاستراتيجى ــ أشعر بالأسى لهؤلاء الشباب وهم يدفعون حياتهم ثمناً لأخطاء قادة وزعماء لا يستحقون هذه التضحية، ولا أظن أن أرواحهم تعنى عند هؤلاء شيئاً يختلف عن "عدة الشغل"، ومنها خيال المآتة الذى يقف وراء واحد من اثنين يتشابهان فى

أمـــور كثـــيرة، أثناء رئاسة كل منهما لمجلس وزراء من مليون عضو، وأيضاً فى الرقم ١٧ الذى لابد له مغزى يغيب عن فطنتنا، أحدهمـــا جعله رقم محافظة الكويت، والثانى رقم القوة التى تتولى حراســـته شخصياً !، .. من ماذا ؟ الجيش القوى إذن قد يجد نفسه فـــى مـــأزق ممـــا يفعله المقاتلون الذين يتبعون طريقة "أضرب وأجرى" ــ أو، أضرب وأموت .

وقـــد ذاق الألمـــان الأمريـــن على أيدى هؤلاء أثناء احتلالهم يوغوســـلافيا ، بجـــيش جـــرار على مستوى من الكفاءة شاهدناه وعرفـــناه. وكذلك الأمريكان فى فيتنام ثم الإسرائيليون فى جنوب لبنان. فى جميع هذه الحالات كانت الأرض تصلح لهذا النوع من القـــتال، الأفراد متفرقون فى مناطق جبلية أو أحراش كثة وكثيفة، مـــاذا يفعل الجيش النظامى بقنابله ولو كانت نووية؟ لابد أن ينزل قوات لمقاتلتهم وهذه ستكون معركة غير متكافئة، وحتى بعد مجئ الطائـــرات المروحية، فى استطاعتهم اصطيادها من مخابئهم التى يصعب تحديد مواقعها .

الحـــل الوحـــيد أمام الجيش النظامى هو أن يرغم حكومة البلد الـــتى يحـــتلها علـــى أن تتعقبهم أو تقضى عليهم أو تسكتهم بأى وسيلة، وإلا فإن هذه الحكومة سوف تجد نفسها فى موقف لا تحسد علـــيه. وقـــد استخدم الأمريكان قوتهم فى فيتنام شمالها وجنوبها، ولكـــنهم وجـــدوا عقبتيـــن كبيرتين ، أولاهما أن العالم يستنكر ما يفعلونه وهم يتخذون وضع القيادة العالمية التى تعمل من أجل خير البشـــرية (أقول تتخذ هذا الوضع ، ولا أقول أنهم كذلك حتى ولو كانوا كذلك ، ومع اعتقادى بأنهم من بين القوى المهيمنة أفضل ما رآه تـــاريخ البشـــرية حـــتى الآن ، وسنأتى لذلك، فقط أرجو من القارئ شيئاً من طول البال و "ضبط النفس") أما العقبة الثانية فهى موقـــف الشـــعب الأمـــريكى نفسه متمثلاً فى الصحافة و "الميديا" وجماعـــات الضغط وآباء الجنود الذين يموتون فى الحرب . "ما

الـذى نحـن بسـبيله هناك ؟" ، هكذا تتساءل المعارضة ، كانت مظاهرات الطلبة تسير فى الشوارع وقد رفعت لافتات موجهة إلى الرئيس جونسون (الذى وصفه السادات بحق عندما قال وهو ذاهب للاجـتماع بالرئـيس جـيرالد فورد : "فورد ليس راعى بقر مثل جونسـون") ـ كانـت هذه اللافتات تقول فى عبارتين منسجمتين بقافـية بديعـة فى الإنجليزية، تضيع عند الترجمة طبعاً ، صباح الخير يا ل.ب.ج، ترى كم شاباً قتلتهم اليوم ؟

كـان هـذا هـو الطريق إلى الانسحاب من فيتنام بجهود من الرئيس نيكسون ووزير خارجيته كيسنجر . نفس الشيء تماماً فى لبـنان، مضـت فصائل حزب الله تنزل الخسائر البشرية بالجيش الإسرائيلى الذى لم تكن أمامه العقبة الأولى التى واجهها الأمريكان فـى فيتـنام ، ولكـن الثانية تتمثل تماماً فى إسرائيل وفى كل بلد يسـتطيع الـناس فيه أن يعترضوا على تصرفات الدولة دون أن تـتعرض بناتهم للاغتصاب فى السجن الحربى الذى يديره سفراء المسـتقبل . ولأنـه لـيس لديهـم العقبة الأولى فإنهم أعلنوا أنهم سـيقومون بتدمـير البنية التحتية فى لبنان لإرغام حكومتها على إسكات حزب الله ، كان هذا أثناء حكومة إيهود باراك، وفعلاً بدأوا يدمـرون محطات الكهرباء مما أدى إلى إظلام أحياء بأكملها فى بـيروت، ولو استمروا فى هذا لتحولت لبنان إلى بلدة فى العصر الحجـرى، ثم فجأة ، توقف القصف الجوى وأعلنت إسرائيل أنها ستنسحب مما سبق أن أسمته "الحزام الأمنى" فى جنوب لبنان، وأن هذا الانسحاب "من جانب واحد" لماذا ؟ لماذا سكتوا وانسحبوا ؟

لم يقل لنا أحد شيئاً عن هذا. هناك احتمالان لا ثالث لهما، إما أن ضمائرهم بدأت تعذبهم ، وهذا مستبعد تماماً.

وإمـا أن السفير الأمريكى طلب مقابلة باراك وقال له أن عنده رسالة من حكومته مفادها أن "حكومتى تريد أن توضح أنها تتحمل الكثـير مـن أموال دافعى الضرائب الأمريكيين لكى تبنى مرافق

لدول العالم الثالث، وهى ترى أن تدمير هذه المرافق معناه إضاعة ثمار هذه التضحيات " هنا وجد باراك أنه لن يستطيع أن يقنع الناخب الإسرائيلى بأن يتحمل خسارة أبنائه فى معارك المقاومة اللبنانية .

للقارئ أن يفضل أياً من هذين الافتراضين، كلاهما أمر من الآخر، أليس كذلك ؟

أمريكا وإسرائيل :

نحن لا نقول بأن أمريكا تضغط الزر فينصاع الإسرائيليون . فقط لم نكن نحلم ونحن نراهم ينسحبون من سيناء وغزة سنة ١٩٥٦، ثم يقتلعون مستعمرة ياميت وغيرها من سيناء سنة ١٩٨١ بعد أن سكنوها وبنوا حياتهم فيها ثمانى سنوات، ثم مسحوها من على الأرض . وقد حاول المستوطنون أن يقاوموا جهود الإجلاء ، فحكومتهم هى التى جاءت بهم وشجعتهم على الإقامة وجعلتهم يشتغلون بمهن مستمدة من البيئة المحيطة، كالصيد والسياحة والتعدين، وطبعاً نزح ثروات المنطقة من معادن وبترول وفاكهة .. إلخ . (حرب استنزاف حقيقية هذه !) أخرجوهم بالقوة ، ورأيت لهم صوراً وبعضهم مكبل بالسلاسل بل وداخل أقفاص من الحديد. يقول أنصار المقاطعة الأبدية أن اليهود يسعون إلى تحقيق أحلام التوراة فى وطن إسرائيلى يمتد "من نهر مصر .. إلى النهر العظيم، نهر الفرات" ــ لقد احتلوا أراضى مصرية سنة ١٩٤٩ وجلوا عنها نتيجة لمحادثات رودس التى أدت إلى الهدنة التى امتدت إلى أن احتلوا سيناء سنة ١٩٥٦ ــ حرب السويس ــ كما نعرف، وانسحبوا منها ، ثم احتلوا سيناء كلها سنة ١٩٦٧ وكنت تراهم من أى موقع فى الضفة الغربية، وبقوا فيها لغاية قيام حرب ١٩٧٣، حيث قامت قواتنا بعملية بهرت أنظار العالم، وذاقوا فيها

مرارة الاستسلام لقواتنا من مواقع فى القنطرة والشط ، فى الشط بالذات جرت مراسم الاستسلام ورفع العلم المصرى بعد إنزال علم إسرائيل ، وظهر فى البيان العسكرى أننا كنا نستطيع إبادتهم ولكننا فضلنا السلوك الحضارى .

بدأ الجسر الجوى بعد ذلك ، وكانت الأقمار الصناعية قد بدأت تلعب دورها الهائل فى التصوير والتقاط المعلومات ــ وهو التطور الذى يحقق نوعاً من السيادة المعلوماتية للقوى العظمى لم يسبق له مثيل ، ولا شك أن الإسرائيليين تلقوا من حلفائهم ما مكنهم من التسلل الذى أطلق عليه اسم "الثغرة" ــ طبيعى جداً هذا، فقد كان الأمريكان يريدون أن يقتلعوا النفوذ السوفيتى من المنطقة وخصوصاً مصر، حيث يصل إلى أقصاه، وعبروا بكل وضوح وصراحة عن رغبتهم هذه ، ولكنهم ــ طبعاً ــ لن يسمحوا بأن تصل هزيمة إسرائيل إلى أبعد مما هو ضرورى لكبح المغرورين والمتشددين من قادتها .

وهذا هو ما جعل الرئيس السادات فى واحدة من خطبه التالية لتلك الأحداث ، يقول "أنا مش حاحارب أمريكا" ــ وهذا أيضاً ما جعله ــ بحكمة يحمد عليها ، ويذم طبعاً من "إياهم" ــ يبث رسالته فى أول الحرب ليقول للعالم أنه يريد أن يسترد أرض مصر المحتلة، لا أكثر . وقد فعل ، قام فعلاً باستردادها وإزالة كل ما عليها من مستوطنات . حقاً ، يالها من خيانة .. عقبال الحبايب . من حسن حظ الفلسطينيين أنهم لن يتعرضوا لخيانة كهذه . لو أن اليهود يحلمون بوطن يمتد إلى ضفاف النيل ، ولو أنهم يفعلون ما يريدونه ، فلماذا انسحبوا بعد أن احتلوا الضفة الغربية لقناة السويس ، بل وقاموا بإزالة جميع حقول الألغام التى زرعوها فى عملية الثغرة ، وهو بند فى الاتفاقية أصر عليه الخائن ، حقاً ، إلى أى حد فقدنا الرشد وأصبحنا لا نعرف الليل من النهار.

هل لابد لدولة مثلنا من جيش حديث تستطيع به أن تفرض

إرادتها بالقوة ؟

وهل هذا ممكن ؟ وهل هذه هى قضية الإنسان المصرى ؟

هل هذا حاصل فى أى دولة أخرى من دول العالم الثالث ؟

خذ تركيا مثلاً. كانت عصابة من العسكر تحكم اليونان، وكالمعتاد فى حالات الحكم العسكرى، لابد من دخول الحرب ثم تلقى الهزيمة فيها. كانت مغامرة يوانيدس وبابا دوبولوس هى قبرص، ما أن شرعوا فى ذلك وأسقطوا الأسقف مكاريوس حتى تدخلت تركيا بقواتها وفرضت الواقع الذى ما زال يسود حتى الآن، أكثر من ربع قرن. تظاهرت أمريكا بأنها تعترض على استخدام أسلحة حلف الأطلنطى فى مسألة "شخصية"، وأعلنت فرض الحظر على تركيا، ولكن من الواضح أن تركيا تلقت الضوء الأخضر منها لأن أمريكا لا تهوى الأنظمة العسكرية أو لم تعد تهواها بعد أن ثبت لها فشل هذا الأسلوب الأحمق. طبعاً سقطت العصابة فى الحال، تماماً كما حدث فى حالة جزر فوكلاند، الجنرال جالتييرى هو أيضاً "اختشى" بعد النكسة، لكن اللى اختشوا ماتوا .

توجد فى جميع بلدان البلقان أقليات تركية تعانى الاضطهاد ، فى بلغاريا يرغمونهم على تغيير أسمائهم ونسيان لغتهم ، لا تستطيع تركيا أن تقدم على شىء هنا، كما لم تستطع أن تتحرك فى موضوع البوسنة ثم فى كوسوفا.

قد تكون هناك حالة نادرة فى موضوع الهند . قامت حرب بين الهند وباكستان فى أواخر الستينيات وحطم كل منهما قدرة الآخر ، ثم فى مطلع السبعينيات شنت أنديرا هجومها على باكستان بعد أن أدت سياستها البهيمية إلى مذابح واسعة النطاق ونزوح الملايين إلى الأراضى الهندية . كسبت الهند تلك الحرب وانشطرت باكستان إلى قسمين .

لكى تكون لدينا قوة حربية نستطيع أن نهزم بها إسرائيل لابد من:

(١) الارتفـــاع إلى مستواها كدولة فى العالم الأول ، من حيث نوعـــية المعيشـــة والتعليم والصحة والرضا عن الحياة والاقتناع بضرورة القتال .

(٢) أوضاع عالمية تمكن من ذلك .

لا يـــبدو هـــذا محـــتملاً . كما أننى لا أراه ضرورياً ، وأظن أن الـــتعايش مع الأوضاع العالمية ومع الهيمنة الدولية.. ليس ممكناً فحسب ، بل هو ضرورى . مشكلة الشعب الفلسطينى مؤلمة طبعاً، إلا أنـــنى لست أجد فى ذاكرتى ولا فى المراجع التاريخية، أن هذا الشـــعب تلقى من جانبنا ولا من جانب غيرنا شيئاً سوى مضاعفة آلامه . وعندما نسعى إلى الخير نصبح خونة .

وإذا كان لى أن أبدى رأيى ، مجرد هذا ، فإننى أرى أن وجود الرئـــيس السابق كلينتون ـــ "قايم نايم" فى شرم الشيخ ومعه باراك الـــذى رهـــن مستقبله ومستقبل المعتدلين كلهم على تلك المحاولة الأخيرة ، كان فرصة لا يجوز أبداً أن ينطبق عليها ما قرأته مرة فى مجلة عالمية تصف العرب بأنهم "لا يضيعون فرصة لإضاعة فرصـــة" . كان واضحاً أن هذا سيعطى الحق لشارون أن يقول : انظـــروا ، لا فـــائدة مـــنهم ، ينهزمون ويريدون كل شىء . أنتم تضيعون وقتكم وطاقتكم فى محاولة التفاهم معهم !" لعنة الله عليه!

الآثار النفسانية لعصر عبد الناصر :

الأصل فى السلطة الحكومية أنها تقوم من أجل النظام العـــام . نحن البشر نتميز عن جميع الكائنات الأخرى بأن دوافعنا النفسانية مـــتعددة، لديـــنا غريزة، تماماً مثل القرود، ولكن لدينا أيضاً العقل الـــذى نفكر به، والذى نختزن فيه ثمار المعرفة والتجارب، وعن هـــذا الطـــريق نتطور ويتغير أسلوب حياتنا كل يوم، ولدينا أيضاً العاطفـــة، نحـــن نحـــس بعواطف طويلة المدى: الحب، الغيرة، والخـــوف ـــ ضع الغريزة مع العقل مع العاطفة تجد مثلث القوى

الذى يحكم تصرفات البشر سواء كانوا أفراداً أو جماعات. الإنسان بدوافعه هذه قادر على درجات عالية جداً وسامية جداً من العمل السوى ــ وأيضاً على أن ينحط إلى مستويات مخيفة من الأذى والعدوان، خصوصاً عندما يجوع وتطغى غريزته على عقله وعاطفته ــ لما كان الإنسان كذلك فإنه لا يستطيع أن يعيش حياة تلقائية كبقية المخلوقات، لابد من نظام يحكم الجماعات، الإنسان الوحيد الذى كان حراً تماماً هو طرزان. مع تقدم المعرفة تتطور نظم الإدارة هذه ومعها القانون الذى يحمى الناس من بعضهم البعض، من هنا جاءت السلطة والحكومة، ومعها الشرطة أو "العسس"، ثم الجهاز القضائى والجهاز التشريعى. فى المجتمع الحديث، لابد من فصل هذه السلطات، لابد ألا تكون الشرطة هى الخصم والحكم، وهناك قيوداً لأسلوبها وتعاملاتها، ويؤخذ المذنب، لا إلى غرفة العرش ومسرور السياف، كما كان الوضع أيام أبى جعفر المنصور وأمثاله، وأيضاً أيام غرفة الإعدام على ساحل جزيرة فى نيل القاهرة. بل إلى محكمة فيها ممثلون للاتهام والدفاع وهكذا.

السلطات فى المجتمع الحديث إذن ــ عندما لا تكون هناك "ثورة" ــ تأتى منفصلة ، وهذه طبعاً فلسفات ترجع إلى عصر التنوير فى أوربا، القضاء مستقل وإلا فلن يكون قضاء، سيكون القاضى تابعاً لأمثال أبى جعفر المنصور(وكانت المحاكم العسكرية فى عصر النكسة تنعقد وتنظر الدعاوى ثم : "ياللابقى نروح نجيب الأحكام") ، ثم هناك سلطة أخرى مستقلة تصنع التشريعات، القوانين التى تنطبق على جميع الناس عندما لا يقرر محافظ القاهرة أن يعطيها إجازة . والسلطة التنفيذية عملها هو تطبيق هذا الكلام، وفى المجتمع الحديث أيضاً يوجد إعلام حر هو أيضاً، ومعروف أن صحيفة واشنطون بوست كانت هى التى فجرت فضيحة ووتر جيت وأثبتت للعالم أن الرأى العام يعلو فوق

السلطة، ومن هنا يأتى شعار الوفد القديم: "الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة" ــ حقاً، إن حرية الرأى العام والصحافة، تصلح مقياساً أوحد لرقى الأمم، وطبعاً، لابد أن ينسجم هذا مع ذاك، كلاهما : الرقى والحرية، ضرورى لوجود الآخر .

نحن لسنا إذن فى حاجة إلى الحكومة لكى تدير عمر أفندى. ولا لكى تقوم بأعمال المقاولات وصناعة الملابس الداخلية والخارجية. وبيع السمك والطعمية . امتلاك الدولة لهذه المؤسسات يؤدى إلى إلباسها طاقية الحكومة وإخضاعها إلى الروتين المألوف وإلى أنواع من الرقابة تشل حركتها تماماً وتصيب المديرين بالذعر وتمكن العاملين تحت إمرتهم من الغدر بهم عن طريق "الأجهزة" وغيرها، ثم ــ وهو الأدهى من كل هذا ــ عندما تصبح الحكومة هى المستوظف الوحيد ، صاحب العمل الوحيد ، فإنها تصبح بالتالى ملزمة بتشغيل الناس جميعاً، وقد رأينا مشكلة الخريجين تعالج ــ كما تعالج جميع المشاكل ــ بالعافية، بالقرارات، يؤدى هذا إلى تفاقم حجم العمالة وهبوط إنتاجية الفرد وانعدام الشعور بالمسؤولية ، نتيجة لهذا كله تنخفض الجودة ويتحتم أن تستعامل مؤسسات الإنتاج مع دول الكتلة الشرقية كما رأيناه يحدث، اتفاقيات تبادل تتوقف كلها على ظروف الدولة الكبرى، فهى تعطى ما تستغنى عنه وتأخذ ما يمكنها أخذه، وفى زيارة لى للاتحاد السوفيتى أثناء الستينيات لاحظت أن فاكهة الأناناس تنتشر فى كل مكان ، فوق مناضد المطاعم وفى واجهات الحوانيت (وهذه كانت لا تتجاوز عشرة فى كل موسكو)، وكأن السماء تمطر الأناناس . الذى كان يحدث هو أن بلداً مثل أندونيسيا تريد أسلحة تقيم بها استعراضاً فى عيد قومى، وليس لديها سوى محصول أناناس، والروس يريدون أى شىء "يفرح العيال"، اقتصاد المقايضة هذا يأتى البائع والمشترى بما يتصادف وجوده لا بما هو فى حاجة إليه، وقد رأيت فى شركات القطاع العام عندنا

أطناناً هائلة من الرواكد، بل ومن معدات الإنتاج التى لا تدور ولا يشتغل عليها أحد، فقد جاءت مثل ثمار الأناناس ، والمديرون لا يستطيعون أن يقولوا أنهم ليسوا فى حاجة لشىء فى الوقت الحاضر، أو أنهم فى حاجة إلي خامات معينة قد لا تتوفر لدى الروس. الإنتاج أى كلام طبعاً لأن بعض مكوناته قد لا يتوفر والتوقف يؤدى إلى أن يتحول صاحب القرار إلى كبش فداء، كما حدث ــ على ما أذكر ــ لشركة الملح والصودا، جاء الرئيس فى عيد الخطب مرة وهاجم هذه الشركة لسبب غير معروف، صباح اليوم التالى انهالت الصحف ــ ومعها الشرطة العسكرية طبعاً ــ على رءوسهم، ومرة أخرى، ولسبب لا أظن أحداً يعرفه، جاء بزكريا محيى الدين رئيساً للوزارة، لعله كان يريد تعذيب الوزراء؟ وفجأة وفى خطبة عصماء، قال إن الذى يلزمنا هو كفاءة الإدارة التى ظهرت فى قناة السويس، وكفاءة البناء التى ظهرت فى السد العالى، كان هذا هو الطريق إلى الإتيان بصدقى سليمان رئيساً للوزراء، وبمحمود يونس وزيراً للصناعة أول الأمر، ولكنه قال أن النقل والمواصلات تناسبه أكثر لأن قناة السويس "كلها مواصلات". وكان وزير المواصلات مصطفى خليل، فوجد نفسه فجأة وزيراً للصناعة. الوزارات الموسيقية، وسرعان ما قامت حرب ١٩٦٧ دون أن يدرى بها رئيس الوزراء . سمع بها فى الإذاعة.

إما التحول الإشتراكى فقصة أكثر طرافة . كنت ذات يوم أستمع إلى الراديو ــ هذا قبل مجئ التليفزيون ــ وكان الرئيس يلقى واحدة من خطبه التى أصبحت كأنها ــ واستغفر الله ــ سوراً قرآنية . أخذ يتحدث فى أمور من هنا ومن هناك ، وفجأة قال "لازم نقيم مجتمع اشتراكى (ثم وقفة تاريخية) ديموقراطى (ووقفة أخرى) تعاونى" ــ وفى اليوم التالى فتحت الراديو فسمعت على ما أذكر عبد العزيز محمود ، يغنى أغنية هكذا : "اشتراكية

ديموقراطية تعاونية"، وللقارئ أن يزعق بهذه الكلمات الثلاث واحدة وراء الأخرى بهذا الترتيب فيجد نفسه يؤدى هذه الأغنية كما سمعتها أنا تماماً .

وكما هو معروف، كان المدير المختص بالأغانى الوطنية فى الإذاعة يأتى بمؤلفى وملحنى الأغانى ويحبسهم فى مكتبه أثناء خطاب الرئيس ويفهمهم أن لقمة عيالهم رهينة بإتمام الأغنية قبل طلوع النهار وإلا، ومن هنا جاءت "ولا يهمك يا ريس م الأمريكان يا ريس "، وكان هذا بعد خطبة "اشربوا م البحر" الشهيرة، والتى عاد ياسر عرفات وكررها أثناء المعارك التى يدفع بها بأطفال فلسطين ليواجهوا بالطوب دبابات إسرائيل ومصفحاتها .

الدارسون لعلوم الإدارة الحديثة يعرفون أن إدارة المرافق وغيرها من المنشآت العامة تختلف فى كثير عن إدارة المؤسسات الاقتصادية والصناعية والمالية والتجارية، سنجد فى هذه المؤسسات أن الهدف الأسمى هو تقديم المنتجات المادية والخدمية التى تحقق مكانة مرموقة فى السوق، وحصة سوقية يعتد بها وتمكن من البقاء، أما فى القطاع العام، وهو فى المجتمعات التى تسودها آليات السوق، "الرأسمالية" كما تسمى ــ يقتصر على المرافق العامة المملوكة للدولة، كالمطافئ وأجهزة الأمن والقوات المسلحة مثلاً ــ حيث الإدارة لديها ميزانية تنفقها. لسنا بالطبع نزعم بهذا أن الإدارة هنا أمر هين، فهو ليس كذلك على الإطلاق ، هناك دائماً أهداف يلزم تحقيقها، وجميع مراحل التخطيط والتنظيم والقيادة موجودة وقائمة، ومعها جانب المعلومات، الذى نقوله هو أن مشكلات المنافسة والتسويق وتقلبات التكنولوجيا والعملة والتمويل .. إلخ، كل هذا لا يوجد ولا تقدر عليه الحكومة إطلاقاً، وعواقبه هى أن تغرق الشركات فى مديونية البنوك، كما حصل فى مصر. صحيح أن الرأسمالية لها رذائل شنيعة، وهى كامنة فيها ومن خصائصها الأساسية ، ولكن الثمار التى تأتى بها

والناشئة عن كفاءة الإدارة "وعلميتها" ومشاركة العقول النابغة فيها، كل هذا أدى إلى تطور قوانين العمل بما يحقق خيراً كثيراً للقوة العاملة. المهم ليس هو الفوارق بين الطبقات، المهم هو المستوى الأدنى للأجور، وهذا فى الدول الرأسمالية الناجحة ــ كما قيل مؤخراً ــ يفوق راتب رئيس الوزراء فى غيرها من المجتمعات، هذا إذا كان رئيس الوزراء قانعاً براتبه وامتيازاته .

صحيح أن الرأسمالية كثيراً ما تشترى السلطة ، والسلطة كثيراً ما تعيث فساداً فى الرأسمالية ، ولكن هذا شىء وإدماجهما معاً شىء آخر ، تأمل ثلاثين عاماً من حكم ستالين للاتحاد السوفيتى، ومرجعك ليس دعاة الرأسمالية، بل خطاب خروشوف فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى ! السلطة هنا تؤتى الدكتاتور بما هو أوفر من مال قارون وأثمن من حجر الفيلسوف، أنه يمتلك الأرض وما عليها ومن عليها ، ويتحول إلى كائن رهيب فظيع ، وعندما يحدث هذا بالطريقة التى تجرى بها الأمور فى العالم الثالث ، فهو ليس زعيماً له تاريخ فى السياسة كصاحبنا هذا ، بل وله مؤلفات فيها وماض فى الكفاح ، بل هو كائن غريزى، عنيف كالثور جاهل كالحمار قاس كالشيطان، ما أن يصل إلى السلطة بحادث أو آخر حتى يتحول إلى وحش يفترس كل ما يصادفه ومن يصادفه .

لا أتصور أن مصر قد تكلفت فى التطبيق الشمولى أقل من مجمل نتاجها القومى لما يزيد على خمس عشرة سنة . هذا بخلاف "السلب والنهب" كما يقول محمود أبو الفتح : "بطل الهزائم وزعيم ثورة السلب والنهب" ، هكذا دأب على وصفه . ارجع إلى خطاب السادات بعد نجاحه فى تصفية من أسموهم مراكز القوى ، وحديثه عن "الخزنة" فى بيت الزعيم ، رئيس الدولة يخاطب الشعب فى التليفزيون ، هذه ليست إشاعة سيئة النية ، إنها بيان رسمى من رئيس الدولة فى إذاعة الدولة : "الخزنة لها مفتاحين ، واحد مع

سـامى شرف والثانى مع الهانم فوق " ثم أضاف : "أهى الحكاية كده باحكيها لكم تفهموا منها اللى تفهموه" ، ما معنى هذا الكلام ؟ ومـا وقعـه فى إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل ؟ وما وقعه فى نفوس الناس فى مصر ؟ ما وقعه فى نفس أمين مخزن أو صراف يحاكم ويدخل السجن لنقص فيما فى عهدته من مال أو أصناف ؟ اشتراكية أرسين لوبين هذه ..

أضف إلى هذه الحروب . جوبلز عبد الناصر كتب يقول : "إن إيـراد مصنع واحد من المصانع التى بنتها الثورة يكفى لتعويض تكالـيف حرب اليمن" ، وكتب أيضاً يقول : "إننا لكوننا متخلفين ، لن نستطيع أن نتقدم تكنولوجياً وسبيلنا الوحيد هو تعويض هذا بأن نـتقدم اجتماعياً" ، كان التقدم الاجتماعي وقتها معناه الشيوعية ، تـرى هـل شركة الحديد والصلب مثلاً حققت أرباحاً تصل إلى ثلاثيـن مليار دولار تقدر بها تكاليف حرب اليمن ، شاملة الطرق والمطـارات التى أنشأناها هناك وكانت السفن تنقل الرمل والزلط إلـيها والطائـرات تنقل الذهب (وسقطت واحدة منها بالقرب من مدينة أسوان) ـ ثم الأسلحة والمعدات والطائرات الأنتينوف التى تركناها كلها هناك ، أرباح هذا المصنع الخاسر من يومه ، غطت هـذا كله ؟ أنه يخاطب من يرى فيهم عبيداً عند السلطة التى هو عضو فيها .

أثناء ما يسمى بحرب الاستنزاف ، نزح سكان منطقة القناة إلى رأس البر والصالحية وغير ذلك ، وجرى "نقل هيئة قناة السويس إلـى القاهـرة" ، نعم . احتلت مقراً فى مدينة نصر . هذا الشعب كله، الذى يفوق تعداد الأردن وفلسطين معاً، من العاملين فى هيئة القـناة ، بمرتباتهم وامتيازاتهم، ومن جميع العاملين من مدرسين وموظفيـن مـن كل الأنواع، مضوا يتقاضون مرتباتهم دون أن يعملوا أى شيء ! ثمانية أعوام إلى أن قام الخائن بإعادة فتح القناة وتعمـيرها . ملايـيـن تدفع كل يوم، والمطبعة طبعاً شغالة . على

حســـاب من كل هذا ؟ على حساب كل المصريين ، ومازلنا حتى الآن ندفـــع وسنظل ندفع ، وإلا فما الذى جعل راتب أى مصرى يعـــادل واحداً من ثلاثين من نظيره فى أى بلد آخر فى المنطقة ؟ والذى يحتج ، هاتوا أمه أو ابنته .

لست أدرى كيف تكون كل هذه الحروب قد كلفت شعب مصر أقل من مجمل إنتاجه خمس عشرة سنة أخرى . نعم ، عشنا ثلاثين سنة نعمل ، فلاحين وعمالاً "وفئات" ، نعمل وننتج دون أى مقابل، إلى أن هبط علينا الفقر بكلكله ، وسحقنا سحقاً. وهو طبعاً ـــ الفقر ـــ يخلق عالماً مستقلاً ، له نفسياته وأخلاقياته الخاصة .

إلا أن الفقر هدف فى ذاته . عندما وقع الانفصال سنة ١٩٦١ ، وقف الزعيم يعلن أن الذين دعموا الانفصال بأموالهم هم المذنبون، ولذلك : "أنا مش حاخلى حد يبقى معاه فلوس" ـــ وهذا هو السبب فـــى إيداعها سويسرا ومنشية البكرى.. هذا هو تفسير ما تراه فى شـــوارعنا مـــن فوضى وهمجية . تعلم الإنسان المصرى أن هذه ليســـت بلـــده : "أنت تاخد كذا جنيه آخر الشهر تأكل عيالك بيهم، المسكن بتاعك، وببلاش، أنت وأحفادك وأحفاد أحفادك ، المدرسة بـــبلاش، عايز أية تانى ؟ سيبنا إحنا بقى نساعد حركات التحرر". والنهب والتهريب الجمركى شغال. والحروب تقوم دون أن يدرى بها المواطن إلا عندما يفقد ابناً فيها أو تنهال عليه قنابلها.

من أجل من هذا ؟ ومن أجل ماذا ؟

حقـــوق شعب فلسطين ؟ حقاً ! كما يقول نزار قبانى : "لو أنهم قد حرروا زيتونة أو أرجعوا ليمونة .."

العدالـــة الاجتماعـــية ؟ لعـــنة الله عليها إن كانت هكذا ! وكل صـــباح، يمســـك المصرى بالجريدة أو يسمع الإذاعة ليقال له أن اليهود يدمرون منازل الفلسطينيين، ويرتكبون المذابح والمجازر، إلى أن وصل الحقد إلى حلوق الناس، وتأتى ساعة الانتقام، فإذا بنا نهلك فى رمال الصحراء ونعود بأقدام حافية ممزقة، إذا لم نحترق

بالنابالم، ومرة بعد مرة، نعم، هذه هى الحقيقة المرة، بعض الحكام لا يحسون بالاطمئنان إلا إذا أفقدوا شعوبهم آدميتها، وقد روى عن الزعيم الخالد أنه شرح نظريته فى الحكم لمعاونيه : "جوعهم يمشوا وراك زى الكلاب" . كنت أشاهد حواراً فى محطة الـ "بى.بى.سى"، المذيع يحادث رئيسة جمهورية لاتفيا، وهى واحدة من دويلات البلطيق الثلاث التى اكتسحها الألمان فى الحرب الثانية، ثم جاء الروس بعدهم وجعلوا منها جمهوريات سوفيتية ، ثم بعد انهيار هذه الإمبراطورية البشعة، استردت شعوبها حريتها . سألها المذيع : هل يحس شعبكم بالمرارة من جراء ما جرى له ؟ أجابت : المرارة يا سيدى، ترف لا نقدر عليه .

إلا اننا لكثرة ما قتل أبناؤنا بأيدى الإسرائيليين، لن نستطيع أبداً أن نتحمل الحرمان من ترف المرارة، من لذة البغضاء التى ننام عليها ونصحو عليها .

لا بأس بهذا إذا جاء مقروناً بالقدرة على شفاء الغليل وعلى محاسبة من يتسببون فى إصابة شعوبهم بتعاسة لا يقارن بها ما يقترفه أعداؤها فى حقها . ألا يدرك هؤلاء أن الكرامة والعزة .. إلخ، لن تكون متاحة لشعب يقهره حكامه ؟ ولن تكون أبداً من نصيب شعوب خاوية البطون ممزقة الأسمال تفترش الأرض وتلتحف الغبار، لا مدارس ولا مستشفيات ولا رعاية ولا ثقافة ؟ قوة الإنسان لا تتأتى إلا بهذا، بـ "المفهومية"، وليس بالأسلحة، سواء كانت حجارة نلتقطها من الطريق أو قاذفات مقاتلة ثمن الواحدة منها مائتا مليون دولار، نفقد منها خمسمائة فى عدة ساعات ومعها من تكاليف التدريب والصيانة والحظائر ما يعادل هذا الرقم، ثم نتغنى بعد ذلك بأمجاد الثورة، كمجانية التعليم . إن الذى دفعناه ثمناً للطائرات فقط كان يكفى لأن نكون شعباً من خريجى هارفارد .

فقط، إذا كان التقدم العلمى والتكنولوجى يستعاض عنه بالتقدم

التقدمى، فما أسهل أن تحل مشكلاتنا جميعاً .

منذ بضع سنوات كتب أستاذ فى الطب النفسى مقالاً فى جريدة كبرى، قال فيه إن ثلاثة أرباع المصريين مرضى بداء يسمى "مانيك ديريسيف"، وهو ظاهرة معروفة فى زماننا، تجعل الإنسان عصبياً بشكل دائم ولكنه فجأة تنبسط أساريره وينفجر ضاحكاً . أظن كلنا نرى هذا بل ونجربه عندما تنشب المشاجرات بيننا ونحن فى الطريق ، وهو قدرنا المحتوم، فقد وصلت بنا الفوضى والزحام إلى حد أن مجرد أن تأخذ نفساً عميقاً سيجعلك تصدم شخصاً آخر. لم يقل لنا الدكتور شيئاً عن الربع الباقى من أهالينا، هل هؤلاء هم الأصحاء أم أنهم مرضى بأصناف أخرى من الخلل ؟

أنا شخصياً جربت هذا. من الآخرين ومن نفسى . كنت أقود سيارتى ودب شجار بينى وبين سائق آخر، صدمنى من الخلف وكسر الفانوس ، قلت لنفسى : نحن أناس طيبون ، لماذا ــ وأنا محبذ للسلام ــ لماذا لا أراضيه ؟ قلت له مبتسماً : ولا يهمك ، نهارك سعيد ، وإذا به ينزل من سيارته ويصافحنى ويجذب رأسى من خلال نافذة سيارتى وينهال على بوساً (كلمة عربية صحيحة) ــ بشكل جعلنى ــ ولو للحظة ــ أندم على المسالمة وأرى فوائد الصراع المستمر .

وكنت أيضاً أشاهد الـ "بى.بى.سى" وكان كلينتون هو الضيف هذه المرة ، فى اجتماع فى أيرلندا ، بعد إنتهاء رئاسته، وسألوه عن موقف محرج يكون قد جربه ، فقال إن هذا حدث يوم استضاف اسحق رابين وياسر عرفات فى البيت الأبيض ، وأنه انفرد بعرفات وحادثه بشأن المسدس الذى يتدلى من مؤخرته ، فقال له: "أنا لا أذهب إلى أى مكان بدونه" ، وأضاف كلينتون ضاحكاً : "لعله يحل محل تشارلتون هستون" ، مشيراً إلى هذا الممثل الشهير الذى يرأس الجمعية القومية للسلاح عندهم ويتعرض للنقد كداعية إلى العنف ، ثم انتقل كلينتون إلى رابين ،

وكانت المحادثة بشأن المجاملات أثناء حفل توقيع الاتفاق ، وروى أن رابين أبدى أنه لا مانع لديه من المصافحة ، "فقط ، أرجوك ، بدون قبلات !".

وقد رأيت الزعيم الفلسطيني في مواقف كثيرة جداً وقد بدا عليه أنه يؤمن بأن حقوق شعبه يمكن أن تتحقق بالبوس (مرة أخرى، باس يبوس، كلمة عربية صحيحة، وهي أوضح وأقل احتمالاً للخطأ في النطق من قبل يقبل) في أيام ريجان، أسقطت المقاومة اللبنانية طائرة أمريكية هبط قائدها داخل حدود سوريا بالمظلة وقبض عليه السوريون، وكان أمريكياً أسود. أوفد ريجان الزعيم الأمريكي الأسود جيسي جاكسون ليتفاوض بشأن إطلاق سراحه على أساس أن السوريين سيكونون أكثر استعداداً لمحادثة مندوب من أصل شرقي، وتم هذا فعلاً. لم تكن أمريكا إذ ذاك قد وصلت إلى إدراك أن هناك شعباً اسمه الشعب الفلسطيني، طبعاً في وجود رئيس نازي النزعة كهذا، ولكن السيد عرفات أمكنه أن يقابل جاكسون (وهو أصلاً قسيس وكان زميل كفاح للزعيم الأمريكي الأسود مارتن لوثر كنج وأصبح قطباً من أقطاب الحزب الديموقراطي ورشح نفسه مرة للرئاسة ثم انسحب) ورأيت له صورة وقد أطبق على الرجل بفكيه المفترسين والآخر يحاول أن يتملص. على الزعماء أن يدركوا أن صورتهم أمام العالم تؤثر على إحساس العالم نحو شعوبهم. في هذا الموقف بالذات كان مجرد لقاء هذا السياسي الأمريكي بعرفات يعد مخاطرة من جانبه، وقد سبق أن فصل زعيم أمريكي أسود آخر هو أندرو يونج، من منصبه كسفير أمريكا في الأمم المتحدة لأنه اجتمع بشخصيات فلسطينية.

للدكتور محمد كامل حسين مقالة عن اليهود يأتي فيها بتفسيره لما في شخصياتهم من تناقض حاد ، فهم أحياناً يبدون مشاعر إنسانية راقية ومتسمة بالتعاطف، وأحياناً يظهرون كما لو كانوا

شـياطين مجـردة مـن الشعور الآدمى . وهو يعلل هذا بتجربة الخروج من مصر، وقد أوشكوا على الهلاك ثم انشق البحر ونجوا بمعجزة إلهية . وهو يرى أن الاقتراب من الموت إلى حد أن يوقن البشـر أنهم قد هلكوا لا محالة، ثم النجاة بشكل غير متوقع، مثل هـذه الـتجربة خليقة بتشويه شخصية الفرد الإنسانى ، فإذا كانت جماعية فهى أيضاً تشكل شعباً بأكمله هكذا.

الشـعب المصرى أيضاً مر بتجربة شنعاء. النقمة التى تتنامى كـل يـوم، ثـم الاحـتكام للقوة والإحساس بقرب الوصول إلى الإنصـاف، ولكن الذى يحدث هو مرارة تفوق كل مرارة وخيبة أمل لا مثيل لها، وبدلاً من محاسبة المسؤول نجد المسؤول يعاقب ضحاياه إلى حد أن الواحد منهم لا يجرؤ على أن يلفظ بكلمة ينفس بهـا عـن وجدانـه المكبوت، هذا أيضاً خليق بأن يسبب التواء الشخصـية، ثم فقدان الشعور بالانتماء لبلد لا يملك الفرد حتى أن يتألم لمصيره بينه وبين نفسه، النتيجة هى أن يدفن الإنسان أفكاره وأحاسيسه فى أمعائه .

مما يدل على طبيعة ذلك العصر، والذى يجعلنى أشارك الكاتب الوفـدى الـراحل مصطفى شردى فى الحكم عليه بأنه بكل تأكيد أسوأ حقبة عاشتها مصر فى تاريخها الطويل، هذه الطرائف التى سأحكيها .

حسـناً، أصابتنا هزيمة نكراء سنة ١٩٦٧، وعاد عبد الناصر نفسـه يعـترف بها قائلاً فى خطبة عصماء، "أيوة هزيمة، ما با قولش نكسة ولا حاجة"، كل شعوب الدنيا جربت النصر والهزيمة.

والهزيمة ليست عيباً طالما أن المنهزم ــ والقائمة تضم فرنسا وألمانيا واليابان وكل الناس بدون استثناء ــ بذل شجاعة معقولة، وأنا أعرف بالاسم طيارين أقلعوا من مطارات كانوا يعرفون أنهم لـن يعودوا إليها ، ولا إلى غيرها. ولكن القيادة القديمة كانت ما تزال تمارس الفكر الحشاش. صدرت أوامر بأن يسمع كل ضابط

فى الجيش ما يلى بالحرف الواحد : "ايه يعنى سينا ، شوية رمل ؟ وايه يعنى قناة السويس ، ما احنا طول عمرنا فلاحين" ــ أنا سمعته كما سمعه غيرى . طب اسكت أحسن ! ثم بعد فترة ، قام بعض طلاب الجامعة بمظاهرات احتجاج ، شباب غاضب لضياع كيانه وحاضره ومستقبله ، كان الحديث الموجه للجميع مرة أخرى: "تلاحظون أن المظاهرات خرجت من كليتى الطب والهندسة . لماذا ؟ لأن هذه هى الكليات التى يدخلها من تلقوا الدروس الخصوصية وإلا لما حصلوا على المجموع . يعنى دول أولاد الأغنياء ، الساخطين على الاشتراكية" تصور إلى أى حد تصل الخسة والسفاهة والطفولة، "للاحتجاج على أحكام الطيران" ، البيان الرسمى أورد هذا على أنه السبب فى المظاهرات ، كان لابد من إعدام من صدرت ضدهم "أحكام الطيران" ــ تأمل الركاكة أيضاً ، أى طيران ؟ إنه لم يعد حتى يسمى الطيران ؟!

وإن كان لزاماً على ألا أختم هذا الفصل دون أن أذكر بياناً صدر بعد ذلك من الفريق أول محمد فوزى ، كان جاداً وصارماً، ورد فيه : "ليكن فى علم الجميع أن القوات المسلحة سوف تقاتل حتى تنتصر أو تفنى ، ولا يتحدث عن الحل السلمى إلا كل عاجز أو جبان" ــ رائع ، هذا مع تحفظاتى بشأن طبيعة الحرب الحديثة، والتى لا تصلح فيها الشجاعة وحدها . لا أظن شعباً فى التاريخ حارب بإصرار الشعب اليابانى واستماتته واستهانته بالحياة وإقباله على الموت .

"طول عمرنا فلاحين" ــ صح !

هل مازلنا فلاحين ؟ هل سنظل فلاحين ؟ أتمنى ذلك !

إلا أنها مسألة .. فيها نظر.

السد العالى

باقٍ من الزمن خمسمائة سنة :

أســتحلف القــارئ أن يصــدقنى فى أن ما سآتى به هنا بشأن مشروع السد العالى لا علاقة له بموقفى من الحركة المباركة (أو الـثورة إذا كان يصر على هذه التسمية ، وقد تغير مضمون هذه الكلمــة لكثرة ما حدث من ثورات وكثرة الشعوب التى قامت بها) ــ أو برأيي فى عبد الناصر كحاكم (وهو يتلخص فى أنه لا يصلح بأى درجة لمثل هذا العمل) ، الواقع أننى أظن أن السد العالى هو الشــىء الوحيد الذى أقدم عليه بشىء من حسن النية ، بمعني أنه قيل له أن هذا المشروع مفيد لمصر وصدق ما قيل له، تماما كما صدق خرافة القومية العربية وإمكان الاستناد إلي الاتحاد السوفيتى لقهر أمريكا والغرب .. إلخ . وقد يكون مناسباً هنا أن أذكر أننى كنــت مديراً للتدريب المهنى بهيئة السد العالى سنوات ١٩٦٢ – ١٩٦٤ ، وهــذا لا يجعلــنى أتحمل جانباً من المسؤولية فقد كان عملــى هو بناء القوة العاملة فقط وأظننى حققت نجاحاً فى هذا ، أتعــرف من الذى شهد لىَ بذلك ؟ الزعيم الخالد ، أعطانى وسام الجمهوريــة مــن الطبقة الثانية . وطبعاً حضرت الاحتفال بإتمام المــرحلة الأولى ، الذي حضره نيكتيا خروشوف .. وألقى خطاباً حماســياً ، ثم أهدى كلاً من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر أرفــع وســام عســكرى سوفيتى ويسمى "بطل الاتحاد السوفيتى" (جــيرو ــ يعنى بطل ، وهى نفسها هيرو الإنجليزية ، فقط ليس لديهم حرف الهاء ، ويقولون جوسبيتال ، يعنى مستشفى ، الوسام

اسمه إذن: جيرو ــ سوفيتسكى سايوز) ، فى اليوم التالى وأنا فى مكتبى جاءنى كبير الخبراء السوفيت العاملين معى ، (وهذه كانت فرقة من حوالى عشرة خبراء وأربعة من المترجمين والمترجمات) للتعليق على ما جرى .

وأنتهز هذه الفرصة لأعبر عن إعجابى بهؤلاء الناس كفنيين مهرة وأيضاً كبشر ، وهم فى غاية الرقة والتواضع ، ولديهم جلد عظيم على العمل وإحساس بالغ بالمسؤولية ، وقد عملت مع الروس أكثر من خمس عشرة سنة وتعلمت الروسية منهم وعندما سافرت إلى موسكو للتعاقد على المعدات والخبراء لما كان إذ ذاك أكبر معهد للتدريب المهنى فى الشرق ، (هكذا وصفه صدقى سليمان فى حديث معى) ، كنت أتكلمها بما يكفى احتياجاتى . وعبر لى كبير الخبراء عما يحس به الروس فى المنطقة (وكان يوجد منهم بضعة آلاف ، مع أسرهم ، ولديهم تعليمات بأن تتجنب زوجاتهم الحمل وإلا رحلوا فوراً ، وحدث هذا لمترجمة بالغة الجمال كان اسمها ناتاشا ، كانت تعمل معى، تزوجت ورحلوها مع زوجها لهذا السبب ، أذكر هذا لمجرد تبيان مدى التدخل فى الأمور الشخصية) ــ قال إنهم أحسوا جميعاً بالدهشة لموضوع الوسام هذا ، فهو لا يمنح إلا للعسكريين ، ولا بد أن يكون ذلك مكافأة على البطولة فى الحرب. وقد روى هيكل بعد أن "رحل عبد الناصر عن دنيانا" فى واحدة من مقالاته الـ .. ، ما علينا ، روى أن عبد الناصر عندما زار موسكو فى عصر بريجنيف ، سأله هذا الأخير عن السبب فى أنه لا يمتشق الوسام ، وهم يعتادون هذا ، يعلقون الأوسمة على الملابس المدنية . وقد قيل أن هذه الغلطة ذكرت من بين أسباب إسقاط خروشوف ، واعتبرت استهانة بقيم الأمة السوفيتية .

كل حاكم من هذا النوع يلجأ إلى إقامة مشروع هائل ليكون علامة على "ألوهيته" ، كما شيد رمسيس الثانى معبد "أبو سمبل"،

وكما أمر ستالين بحفر قناة للرى اسماها باسمه ، يقال أنه هلك فيها ملايين من أبناء الشعب الروسى لمجرد إبعادهم لأسباب أمنية، وأيضاً كما فى القصة الشهيرة "مزرعة الحيوانات" للكاتب الإنجليزى جورج أورويل . صحيح هذا ، ولكن الحقيقة تبقى وهى أنه ظل يعتقد أنه يقوم بعمل مفيد لمصر، يختلف عن مصادرته لثروات البلد وأبنائها ليوزعها على الصحف فى الدول العربية مثلاً لكى تؤيد زعامته ــ بنتيجة عكسية طبعاً ، كما هو دائماً ــ وليس كما أمر بإرجاع الفرقة المدرعة إلى سيناء سنة ١٩٦٧ بعد أن أتمت انسحابها ، لما قيل له أنه قد يحدث انقلاب ضده . وهذا واحد من أسباب إهمال كل هذه المئات من الألوف من الجنود وتركهم يهلكون عطشاً وجوعاً ، من أجل حماية النظام والاحتفاظ بالرواتب ، بالقصاقيص الشهرية ، وليس كما أمر بضرب بورسعيد بالمدفعية لكى يشتت أهلها لما أظهروه من سخط لقطع أرزاقهم بسد القناة ، فيما يحكى .

ولا شك أن الدفاع عن السد العالى ممكن ، انظر :

ــ مصر طبعاً تعتمد على ما يأتيها سنوياً من مياه الفيضان، والفيضان تتراوح كميته من سنة لأخرى إلى حد أنه فى بعض السنوات تصل كميته إلى ثلاثة أمثال سنوات أخرى، وبالتالى فإن الزراعة لا يمكن أن تثبت على حال فى وجه هذا التفاوت الذى أدى إلى فيضانات خطيرة سنة ١٩٦٤، ١٩٧٣ وإلى قحط وجفاف سنوات ١٩٧٢ / ١٩٧٣ ثم ١٩٨٣ / ١٩٨٤، هذا الجفاف طبعاً كان كارثة لدول النيل الأخرى ولكن مصر استمدت حاجتها من بحيرة ناصر .

ــ مثل كل السدود، يعطى السد العالى طاقة كهربائية بدون الحاجة إلى حرق الوقود الذى يتسبب فى تلوث الهواء وسخونة الكوكب .

ــ يمكن السد العالى من المحافظة على منسوب ثابت نوعاً

لمـــياه النهر من أسوان إلى سواحل البحر الأبيض مما يمكّن أيضاً من تحسين الملاحة لأغراض النقل والسياحة .

ـــ يضـــاف إلى ذلك توفير قدر هائل من مياه النيل كان يذهب إلى البحر كل سنة.

فـــى مقابل ذلك كان النقد الموجه إلى المشروع من قبل بدايته والذى استمر حتى اليوم يتضمن :

ـــ احتجاز المياه أمام جسم السد يؤدى إلى ترسب الطمى الذى يـــأتى إلـــى مصر كل سنة منذ آلاف السنين وهو الذى تكون منه وادى النيل ثم الدلتا ، الواقع أنه هو المادة التى تكونت منها مصر كما قال هيرودوت منذ ألف وأربعمائة سنة ، وبدونه : لا مصر .

ـــ انقطاع الطمى أدى إلى تآكل سواحل مصر بين فرعى الدلتا ثم شرقاً وغرباً .

ـــ مـــن النـــتائج أيضاً ، تملح الأرض الزراعية والذى وصل حـــتى الآن إلـــى عمق لا يقل عن عشرة كيلو مترات من ساحل البحر .

ـــ اخـــتفاء الطمـــى يـــؤدى إلى الاسراف فى الاستعاضة عنه بالأسمدة الكميائية ، مما يؤدى إلى تلوث البيئة .

ـــ انقطـــاع المـــياه الغنية بالطمى أيضاً أدى إلى اختفاء ثروة هائلة من أسماك السردين والجمبرى .

ـــ كمـــا أدى أيضاً إلى تزايد النحر فى المنشآت المقامة على النيل.

من حيث الايجابيات، فإن الذين عاشوا عمراً طويلاً فى بلادنا ـــ مـــثلى ـــ لـــن يســـتطيعوا بسهولة أن يستخرجوا من ذاكرتهم فيضـــانات مدمرة كالتى تجتاح بلاداً مثل بنجلاديش ـــ بل فرنسا وانجلترا وأمريكا، ولا أيضاً سنوات جفاف آذت المحاصيل بشكل محسوس، والذين يؤيدون هذا المشروع المأسوى لا يفكرون إلا فى أرقـــام الأرض المزروعة وكمية الكهرباء الناتجة دون أن يبذلوا

أدنى قدر من التفكير فى الثمن الفادح الفظيع الذى سندفعه ــ كما دفعنا فى "الوحدة" وفى "القضية" ومناصرة حركات التحرر.. إلخ، ثمن هائل ندفعه لا فى نظير لا شىء، ليت الأمر كان ثمناً من أجل لا شىء، إنه ثمن فادح والمقابل كوارث ماحقه نشتريها بدمائنا وعرقنا.

وقد بدأت السدود تتعرض للنقد الشديد فى كل أنحاء العالم، حتى مجرد الفكرة، ونحن كان يمكننا أن نحقق هذه الفوائد ــ زيادة الرقعة الزراعية وتحسين دورة الإنتاج الموسمى ــ لو أننا فقط لم نستهلك مليون فدان من أخصب الأراضى التى أنعم الله بها على هذا الكوكب، فى بناء المساكن، وإذا أتيح لك أيها القارئ العزيز أن تعود من الخارج فى رحلة تطير بك فوق الدلتا ليلاً لرأيت إلى أى حد هى مدن سكنية أكثر منها أرضاً زراعية. ولو أننا أيضاً تجنبنا أن ننحت الأرض لإنتاج الطوب الأحمر من أجل بناء هذه المساكن لكنا قد حققنا كل ما نحلم به من وراء هذا المشروع الاستعراضى دون أن نضطر لإقامته، وإلى رهن محصول القطن عشرين سنة كاملة للروس، وهم بدورهم راحوا يبيعونه لقاء محصول أناناس أو صفقة أحذية ، أو مجرد تراب الفلوس ، وهم طبعاً أجهل الناس سواء بالقطن أو بالبيع .

أما الكهرباء فهى اليوم تمثل أقل من عشرين فى المائة من إنتاجنا من الطاقة . إلا أن المصيبة الكبرى لا تتمثل فى هذا . أيه إيجابيات وأيه سلبيات تلك التى نتحدث عنها ، وأى منافع وأى أضرار ؟ إذا كانت مصر ــ بسبب السد العالى ــ سوف تنتفى من الوجود وتختفى من الخريطة بكل إيجابياتها وسلبياتها؟! فدادين أيه وسردين أيه ؟! ما فائدة مليونى فدان نضيفها إلى الأرض المزروعة إذا كنا :

أولاً: قد أكلنا مليونين مساويين فى مشروعات الإسكان والتجريف ، مناطق الهرم والجيزة والدقى والمهندسين والسواح

وحدائق القبة وحدها ، مئات الألوف من الأفدنة العظيمة الخصوبة لا تحلم بنصفها دول جنوب أوروبا أو شمال إفريقيا . أما التجريف فمـــا تزال تربة مصر حتى الآن تتحول إلى أقبح عمارات وجدت على ظهر الأرض ؟! مجرد حوائط حمراء يستتر الناس داخلها .

ثانـــياً : ســـوف نحبس المياه بالسد العالى بحيث لا تأتينا منها قطرة، وسوف نحيل الأرض إلى مستنقعات مالحة؟

خلال سنة ١٩٩٩، كنت على صلة بإحدى الهيئات الإستشارية، واشـــتركت فـــى إلقاء محاضرات فى علوم الإدارة حضرها كبار العامليـــن بالوزارة ، كان منهم وكلاء أول للوزارة ومفتشون لرى المحافظات، سبعة برامج (سيمنار، كما يسمى) لمدة ثلاثة أيام كل منها . سألت بعضاً من كبارهم على انفراد، عما إذا كان صحيحاً ما يذاع فى أنحاء العالم من أن الطمى سوف يتراكم عند جسم السد وبطول البحيرة حيث يأتى يوم يتعذر فيه سحب المياه منها ؟ وأن هذا سيؤدى إلى تكوين دلتا أخرى جنوب أسوان تماماً كما تكونت الدلتا القديمة التى عشنا على خيرها آلاف السنين .

كـــان واضـــحاً أنهم لا يريدون الحديث فى هذا ، وعندما تكلم واحد منهم، وهو شخصية مرموقة ، قال إن هذا سوف يحدث على مدى ألف سنة . والواقع أن الكثيرين من الثقات تنبئوا بهذا عندما بـــدأ الحديـــث عن السد كمشروع ، وكان منهم واحد من الخبراء المصريين العظماء هو المهندس عبد العزيز أحمد، وبين يدى الآن كتاب لابنته الأستاذة الجامعية الدكتورة ليلى أحمد ، المهاجرة إلى أمريكـــا ، وهـــو بالإنجليزية وعنوانه A Border Passage تصف فـــيه الاضـــطهاد الذى لقيته الأسرة من الزعيم بسبب معارضته ، الـــرجل طبعاً لا يعرف أسلوباً غير هذا فى مواجهة المنطق ، لا يمكـــنك أن تلومه، فهذه حدوده، إلا إذا كنت تلوم القرش على أنه اقتضم ذراع سباح أو ساقه.

المهندس الكبير الذى قال لى "ألف سنة" ، كان طبعاً لا يـــريـــد

ذكـــر الحقيقة التى تذكرها مصادر الدنيا كلها وهى أنها خمسمائة سنة فقط .

معـــنى هذا أن نهر النيل من أسوان إلى البرلس سوف يتحول إلـــى قـــناة رملية تزحف إليها مياه البحر. معناه أن مصر سوف تتحول إلى دولة صحراوية جافة قاحلة مثل دول الحزام الإفريقى، تـــزرع السمك بدلاً من القطن . فتحت الإنترنت ، وحصلت على نـــبوءات متعددة، منها اقتباسات من التوراة، صحيح أننى لا أراها نـــبوءات تمتد إلى عصرنا هذا، بل إلى وقتها هى، ولكن الحقيقة تـــبقى وهـــى أن هـــناك من هم سعداء بموت مصر، هذه بعض النصوص الواردة :

من سفر حزقيال ٢٩ :

لذلـــك هكـــذا قـــال السيد الرب ، هأنذا أجلب عليك سيفاً وأستأصـــل مـــنك الإنسان والحيوان ، وتكون أرض مصر مقفرة وخـــربة ، فيعـــلمون أنى أنا الرب لأنه قال النهر لى وأنا عملته لذلـــك هأنذا عليك وعلى أنهارك وأجعل أرض مصر خرباً خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تخم كوش ، لا تمر فيها رجل إنسان ولا تمر فيها رجل بهيمة ولا تسكن أربعين سنة .

ومن سفر أشعيا ١٩:

وتنشف المياه من البحر ويجف النهر ويبس .. حسناً ، "أربعـــين ســـنة" توحى بأن هذا كان فى الزمن الماضى ، عقاباً لفرعون الذى طغـــى، ويلحق بما فى التوراة بشأن الضربات العشر التى أنزلها به الـــرب، وليســـت النبوءة خاصة بسنة ٢٥٠٠ أو حتى ٣٠٠٠ ميلادية ؟

خمســـمائة ســـنة هو الرقم الذى يقدره خبراء العالم ، لسنا هنا طـــبعاً فى مجال البحوث الهندسية ، ولكن ـــ بالعقل كده ـــ تبدو فعـــلاً خمسمائة سنة. ياه ! يا هنا من يعيش ! أو قل : يا هنا من

يمـوت ! لـن نكون نحن أحياء بالطبع عندما يحدث ذلك ، ولكن الكثيريـن مـنا سـوف يشـهدون تملح التربة كما شهدوا اختفاء السردين.

كل هذا من أجل أغنية لعبد الحليم حافظ ؟

الجفـاف والفيضـان أزمات تحدث فى كل الدنيا ، لأن القوى الكونية لا تخضع لاحتياجات سكان الأرض . فهل من المعقول أن ننتحر خوفاً من الإصابة بنزلة برد ؟؟

الشقيقة الكبرى :

يقـول نجيـب محفوظ : إن عبد الناصر عاش منهزماً ومات منتصـراً بعكس السادات ، فقد عاش منتصراً ومات منهزماً. أما أنـيس منصـور فيقول : إن المصريين على يدى عبد الناصر قد اعتادوا الهزيمة والبكاء على ما ضاع، وتأصل فى نفوسهم أن ما يـريدونه مسـتحيل أصلاً وارتاحوا إلى هذا الاعتقاد واعتادوا ألا يحاولوا شيئاً أو أن يأملوا فى شىء ، فلما جاء السادات وكسب كل معركة خاضها وكل مواجهة أقدم عليها ، فإنه عراهم أمام أنفسهم وأثبـت لهم أن الانتصار ممكن وأن تحقيق المنى ليس مستحيلاً ، وبذلك أقنعهم بأن ما دأبوا عليه من خمول وما اعتادوه من استكانة هو السبب فيما هم فيه من ضياع ، كما أنه رفع أدوات البطش من فـوق رقـابهم فأحسوا بمسؤولية عن أنفسهم كانوا قد اطمأنوا إلى انعدامهـا وأخلـدوا إلـى راحة أبدية حرمهم هو منها ، وهذا هو السبب فى أنهم أحبوا عبد الناصر وكرهوا السادات ، مع أن الأول أضاع البلد وتسبب فى إفقارها وإذلال شعبها ، وحتى قناة السويس التى يتفاخر بإعادتها إليهم ــ ولعل هذه هى المعركة الوحيدة التى انتصر فيها أول الأمر ــ حتى قناة السويس مات وهى خربانة ولو عـاش لظلـت كذلك ، على أحسن الفروض ، وبرغم أن السادات

نجـــح بعـــد ذلك فى فتح القناة وتعمير المنطقة وإعادة سكانها إلى بيوتهم وإجلاء الإسرائيليين ومحو مستوطناتهم ثم فى إرساء أفكار جديـــدة للحياة والعمل ، كل هذا لم يشفع له ، بل إنه حتى انسحاب الإســـرائيليين من سيناء قال عنه وزير دعاية عبد الناصر (وأنا لا أعده صحفياً ولا أعدها صحافة طالما هى خاضعة للدولة) قال إن انســـحاب الإســـرائيليين مـــن أرض مصر قد حرمها من موقعها القـــيادى فى العالم العربى . لا أظن كل ما فى الدنيا من علامات التعجب يكفى هنا ، ومازلت حتى الآن أبحث عن جزء مما يسمى العـــالم العربى كان منقاداً لمصر أو لعبد الناصر ؟ الملك سعود أم الملـــك فيصل ؟ الملك حسين ؟ عبد الكريم قاسم الذى أطلق عليه هذا الاسم المضحك "قاسم العراق" ؟ أم عارف أم البكر أم صدام ؟ بورقيـــبة ؟ بومدين ؟ من ؟ السودان الذى كان مسرحاً لمهازل لا أول لها ولا آخر ؟ حتى اليمن .. ؟ والإقليم الشمالى ؟

ثم لماذا ؟ لماذا نريد مركزاً قيادياً ؟ ما الذى نفيده من ذلك ؟ أن نكون الشقيقة الكبرى ؟ ونحن بين الشقيقات ، بلد ممتهن ينظر إليه على أنه مستودع البشر الرخيص ؟

حقـــاً ، كـــان لنا مركز قيادى عندما كنا البلد الوحيد الذى فيه جامعة ، وجامعة من أرقى جامعات العالم وأرفعها مستوى ، وكان لدينا مدارس تسمى حقاً مدارس ، سواء بمعنى أنها منشآت للتعليم أو أنهـــا مدارس للأجيال وللشعوب ، تحولت هى أيضاً إلى أبواق لإذاعة الشعارات الجوفاء .

كـــان لنا مركز قيادى عندما كانت العمالة المصرية فى الدول العربية من نوع الدكتور السنهورى ، الذى ذهب إلى العراق ليضع لهـــم دســـتوراً . وليس من نوع صبيان دكاكين البقالة فى شارع السعدون ومختلف أنحاء بغداد، الذين قام سكانها بذبح ما يقدر بأنه بضـــعة آلاف منهم فى ليلة واحدة ووضعوهم فى صناديق خشبية وشـــحنوها إلـــى مصر . كان هذا سنة ١٩٨٨ عندما كنا أعضاء

معهم فيما سمى إذ ذاك مجلس التعاون العربى. لماذا كان هذا المجلس وكيف نشأ ؟ كان قد سبقه ما يسمى "مجلس تعاون دول الخليج" ، وهو ما يزال قائماً ، قد أتيح لى أن أزور جميع دول الخليج (وجميع الدول العربية فى الواقع) . وطفت أنحاءها بالسيارة فى رحلات عمل متعددة ، تخرج من أحدها وتدخل الأخرى دون أن تعرف ، فهى ذات النمط ، نفس المناظر فى كل شئ، جميع المدن جديدة ، والمال الوفير الذى جاء من النفط يجعلها كلها حديثة ، والسيارات كذلك، والملابس وكل شىء . قد يكون لديهم مبرر لتنسيق أمور التبادل التجارى والمالى والمصرفى والعمالى وشؤون العمل والإقامة، إلى جانب ربط شبكات الكهرباء والنقل والطيران..إلخ، ما أن نشأ هذا المجلس حتى نشأ مجلس تعاون آخر يضم مصر والعراق والأردن واليمن ، إلخ ، إحنا كمان ، ما حدش أحسن من حد ، وفى الحال ، نشأ أيضاً مجلس التعاون المغاربى ، وهكذا . هذه هى السياسة العربية فى أروع صورة لها! كم من الملايين يتكلفه هذا وما الذى سيأتى من ورائه ؟ إحنا مالنا .. أتعرفون هذه أيضاً ؟ قال له : الدنيا حر النهاردة، فصاح به : حر حر إحنا مالنا يا أخى ..

من السهل أن نرى شبح الغوريلا وراء هذا ، أطماع صدام الذى تحدث عن اقتسام الثروة، وهو يحكم بلداً لديه ثروة من النفط والماء والطاقة البشرية لو أحسن إدارتها لأصبحت العراق أمثولة للعالم . أظن أن الرئيس مبارك كان يحضر هذه الاجتماعات على مضض، أعتذر عن اضطرارى للتخمين، إذ ليست هناك معلومات، ولكن الذى نعرفه أنه عندما وقع العدوان البهيمى على الكويت وقف رئيسنا وقفة الحاكم المسؤول، وبقية القصة معروف، وبعدها طبعاً انمحى هذا الشىء ..

الذى يعنينا فى هذا المقام أن مصر كانت عضواً مع العراق فى ذلك المجلس عندما وقعت تلك المذبحة التى راح ضحيتها آلاف

من الشباب المصرى ، يقال إنها بدأت بماتش كورة ، ووقع اعتداء على المصريين فقاموا بمظاهرة فى شارع بغداد وسرعان ما جاء العراقيون يدوسونهم بسياراتهم ، يقتلونهم لا لشىء إلا لأنهم يمكنهم ذلك. لا شك أننا نقرر الحقيقة عندما نصف الإسرائيليين بالوحشية لأنهم يواجهون بالرصاص شعباً أعزل فى فلسطين ، فقط ، بماذا إذن نصف مذبحة بغداد هذه ؟ الأهم من ذلك: كيف ترى نظرة العالم إلينا ونحن نتحدث عن لم الشمل إلى آخره ؟ وعن حقوق العرب وأننا أمة واحدة ، إلى آخره هذه السفاهات .

ومما هو أكثر طرافة فى هذا الموضوع أن الزعيم الأوحد علق عليه بقوله مبتسماً : يظهر أن العراقيين منذ الحرب (يقصد الحرب مع إيران والتى كسبوها بالغازات السامة) أصبحوا يتكلمون بأيديهم بدلاً من ألسنتهم . فرحان حضرته بشجاعة شعبه فى دهس الناس بسياراتهم، ترى ما آخر تطورات فسيولوجيا الأعضاء فى العراق هذه الأيام ؟ بماذا يتكلم اشقاؤنا الآن ؟

ليست هذه هى المناسبة الوحيدة. وقع صِدَام بين الجزائر والمغرب فى الستينيات وتدخلت الشقيقة الكبرى، ووقع ضباط مصريون فى أسر المغاربة، وأيام الانفصال فى سوريا اعتبر الضباط المصريون أسرى عند السوريين ، وعقب الغزو العراقى اضطر المصريون إلى الفرار عن طريق الأردن لأنه لا يوجد طريق آخر، وطبعاً ينتشر المدرسون والأطباء والفنيون المصريون فى جميع الدول العربية . فى جميع هذه الحالات عومل المصريون ــ ومازالوا يعاملون ــ على أنهم كائنات دنيا. عبيد المنطقة .. بل إنه معروف عن أحد حكامها أنه لا يتحدث عن المصريين إلا بتعبير معين مهين ، يشير إلى فقرهم وحاجتهم . لن أقول : بسبب القضية ، نحن الذين جئنا بهذا كله لأنفسنا .

الفظائع التى نسمع عنها لن أورد منها شيئاً هنا ، ومنها مثلاً اغتصاب أطفال ، وجلد آبائهم عندما يحتجون ، وضرب المدرسين

بواسطة التلاميذ ، ولم لا ؟ إنه معتاد جداً أن تسمع فى مجالسهم : ولمـــاذا لا نحارب ؟ ماذا لو مات بضعة ملايين من المصريين ؟ الـــذى يعنينى هنا أكثر من أى شىء آخر هو الجهل الذى ينطوى علـــيه هذا الكلام . هل الحرب الحديثة مسألة كم مليوناً يموتون ؟ أتعـــرف كـــم إسرائيلياً ماتوا فى حرب ١٩٦٧ ؟ حوالى ستمائة . ولكن الزعيم الخالد هو الذى سبق إلى هذه الفكرة ، أخذته الجلالة فى واحدة من خطبه وصاح طالباً التصفيق : نجند خمسة مليون ! هم ما يقدروش يعملوا دى ! وفى مناسبة أخرى ، بعد الوكسة هذه المـــرة، كان يتحدث عن مقاومة أى غزو يحدث : "أهو بالسكاكين بالنبابيت ، أيه سكاكين يا هذا وأيه نبابيت ؟ لم يذكر من أين سنأتى بخمســـة ملاييـــن نـــبوت ، يمكن من تشيكوسلوفاكيا ، يظهر أن الرئيس اليمنى يشاركه عقيدته القتالية ! على قدر افتقاره للعلم بكل شـــىء فى هذه الدنيا ، كان جهله بالأمور الحربية يفوق نظيره فى كل ناحية من نواحى الحياة ويدل بوضوح على مدى عجزه عن أن يتعلم أو يستوعب أى شىء . وأظن أن هذا كان واضحاً تماماً سنة ١٩٦٧ بـــل إن هذا ليس كل شىء ، فى عقر دارنا تقع حادثة مثل سميرة مليان . "الثرى العربى" كما أسمته الصحف، هو وأشباهه، لا يـــرون فـــى مصـــر سوى ملاهى الهرم وملحقاتها من بيوت الـــزمالك والعجـــوزة، وهـــم فوق القانون ، من الذى يجرؤ على محاســـبتهم . بداية هذا كله كان زوجة الطالب السودانى وزعامة أمـــثال صلاح سالم . لعل هذا كان فى ذهن الرئيس مبارك عندما قـــال لهم : حانرجع تانى نحارب لآخر جندى مصرى ..؟ صدق والله ، فالمصريون يتندرون بهذا منذ سنوات طويلة .

لمـــاذا ؟ تفسير هذا عند المتنبى ، ولو أنه لم يكن يقصد مصر هذه المرة :

من يَهُن يسهل الهوان عليه ما لجُرح بميت إيلامُ